

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَايَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا
مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ
مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ
لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا
يَشْكُرُونَ ﴾ .

« صدق الله العظيم »

[يَس : الآيات ٣٣ - ٣٥]

في حديثنا الماضي تكلمنا عن العلم والتزام المسلم المؤمن بطلبه ، لأن
الإسلام دين عقل وفكر وعلم ، وهذه المرة نتحدث عن العمل بصفته العماد
الأساسي لرخاء أمة الإسلام وتقدمها وقوتها ، والركن الأساسي لتكوين شخصية
الإنسان .

وقد كنا نستمع إلى آيات الذكر الحكيم عندما قرأ القارئ قول الحق
سبحانه في سورة الأحزاب :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ

يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢/٣٣﴾ ، وسأل سائل ماهي الأمانة التي عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبينها وأشفقن من حملها ؟ وقال قائل هي العبادات ! قلنا : ولكن السموات والأرض والجبال تسبح لله ، وهذه عبادتها ، فكيف يشفقن منها ؟ وقيل آراء أخرى ، وانفض السامر وعدت إلى بيتي وصليت العصر ، ثم تناولت المصحف أقرأ فيه فقرات الآيات التي جعلتها في رأس هذا الحديث ووجدت نفسي تقول لنفسي : إن الله يتحدث في آيات سورة يس تلك عن عُمران الأرض بالعمل ، فقد خلق الله الأرض ساكنة ، ثم أنزل عليها المطر وجاء الإنسان فزرع الحب ، ليأكل من ثمره ، لأن الله يتحدث هنا عن جلائل صنعه التي يجريها على أيدي الناس بدليل قوله تعالى : ﴿ وَقَجَرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ .

فإن الله سبحانه يفجر العيون وينزل الماء ، ولكننا نحن الذين نزرع لتأكل بما عملته أيدينا ، لأن العمل هو واجبنا وعمران الأرض هو أمانتنا ، ونحن الذين قبلناها ، والله سبحانه قد خلقنا لنعبده ، والعمل في عمران الأرض عبادة والذين يعملون أسعد وأقوى من الذين لا يعملون ، والعمل عسير وصعب ، ولكننا قبلنا أمانته دون أن نفكر في مصاعبه وعلينا الآن أن نعمل لأننا التزمنا به لعمران الأرض .

وما قيمة الحياة أو معناها بدون عمل وكسب ؟ وكيف يصل الإنسان إلى شيء إذا هو لم ينهض ويسع في رزقه ورزق عياله ؟ إن العبادات واجبة وهذا حق ولكن الله حدد هذه العبادات وجعلها هينة لا تستغرق من وقت الإنسان إلا شيئاً قليلاً ، فما عساه يفعل بالبقية ؟ هذا بين يدي كتاب رسالة التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد ، وهو أبو سعيد بن أبي الخير الميهني وهو واحد من كبار صوفية إيران في العصر الساماني في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي

وكان يرى نفسه ولياً صاحب كرامات ، لانه فيما يزعم وهب نفسه للعبادة والوعظ والتف حوله دراويش كسالى لا عمل لهم إلا الطعام والنوم وأداء العبادات وشيء من الذكر والاستماع إلى الشيخ أبى سعيد والسير في موكبهِ ، وفي أخبار هذه الجماعة من المتعطلين الذين لا يقومون بأى عمل نافع لأنفسهم أو للناس حتى العبادات يقومون بها لإرضاء الشيخ أبى سعيد ، في هذا ما يدل بالبرهان العملى على أن نفس الإنسان لا تصلح إلا بالعمل ، فهو الذى يشحذ الهمم ويجلو الذهن ويقوى الإحساس بالفضائل ويعلم المهارات ، وإليك هذه الحكاية التى اخترتها من حكايات ذلك الشيخ العاقل وجماعته من المتبطلين :

« روى أنه جاء وقت في ميهنة (القرية التى كان هذا الشيخ وأتباعه يعيشون فيها قرب نيسابور) لم يتناول فيه الصوفية لحماً لعدة أيام ، ولم يكن حسن (خادم الشيخ) يستطيع إحضاره ، لأن جميع القصابين كانوا يطالبونه بأثمان لحومهم ، وفي ذات يوم نهض الشيخ وسار الجميع في رفقته حتى خرج من البوابة المؤدية إلى طريق مرو ، وأصبح على هضبة بصحراء مرو ، وعندما كانت تعترى الشيخ حال من القبض (أى من الضيق) كان يذهب إلى ذلك المكان ، ولما اعتلى الهضبة وقف وتريث برهة وظهر غزال في الصحراء ، ثم تحكى القصة كيف تقدم هذا الغزال من الشيخ أبى سعيد ، وجعل يتمرغ في الأرض كأنه يرجو الشيخ أن يأمر بذبحه ليأكل الدراويش ، وفعل الشيخ . وتختتم الحكاية بعبارة ، وتمتع الدراويش بلحم ذلك الغزال ، وهذه من أبسط حكايات هذه الجماعة المتعطلة التى زعمت أنها تعيش للعبادة فأصبحت جماعة من المتسولين يفرضون أنفسهم على الناس ، ويطالب لهم شيخهم « باللحم والفطير وعليه التفكير » لكى يظلوا حوله يسبحون بحمده ، وهو يتهادى وسطهم كأنه ملك زاعماً أن له عند الله كرامة ، وأن الله يكشف له الغيب ويرسل إليه وإلى أتباعه المال والثياب

وأطايب الحياة ، وهم يسرون وراء شيخهم كسالى متبلدين ولا خير فيهم لأحد .

وكما أن الإسلام دين العلم ، فهو كذلك دين العمل ، لأن العمل الذى يتحصل للإنسان عن طريق الدراسة والبحث والتجريب ، يفتح لصاحب العلم طريق العمل النافع ، والعمل كسب وكرامة وعزة ، وقد كانت أوروبا فى مثل حالنا من قلة الموارد والحاجة حتى قامت النهضة الأوروبية وتحرك نفر من الناس إلى التفكير والبحث والتجريب ، وتحركت همم ناس أمثال ميكيلانجلو إلى العمل بأيديهم وفتحوا للناس آفاقاً واسعة للعمل ، واجتهد رجال مثل لوفن هوك الهولندى فصنعوا العدسات ، ونحن كنا نعرف العدسات ونظرياتنا واشتغل بأمرها الحسن بن الهيثم ، وألف فيها وفى البصريات كتباً ، وهو من أعظم أهل العلوم فى التاريخ ، ولكن الحسن بن الهيثم كتب ورسم واجتهد فصنع عدسات ولكنه لم يصنع كما صنع ذلك الهولندى لوفن هوك أى أنه لم يحول العلم إلى عمل ، ومن هولندا انتقلت العدسات إلى إيطاليا ، واشتغل بأمرها ميكيلانجلو وجاليلو وصنع جاليليو منظاره البعيد ونظر إلى الشمس والكواكب وجاء بعده كوبرنيك فصنع منظاراً ضخماً وتأمل الكواكب ، وجعل ينظر به فى السماء فتكشفت له الحقيقة الكبرى التى بدأت فى تاريخ الفلك والعلم كله عصرأ جديداً : رأى أن مركز هذا الكون هو الشمس لا الأرض ، وأخذ هذا الكلام جاليليو وطار به وجعل يذيعه فى الناس وأمسكت به الكنيسة وحاكمته وأرغمته على أن يكذب نفسه ويرجع عن كل ما قال ، وفعل ذلك علناً أمام الناس حتى لا يجرّوه ، ولكن أبواب العلم كانت قد تفتحت ولا سبيل إلى إغلاقها ، ومع العلم سار العمل واكتشفت أوروبا قيمة العمل القائم على العلم وقامت المعاهد والمدارس والمصانع فى كل مكان ، وسار أهل العلم فى الطليعة ووصلوا فى النهاية إلى ما نراهم عليه اليوم ، وكل الفرق بيننا وبينهم فرق علم

وعمل ، إنهم يؤمنون بالعلم إيماناً تاماً ، وإيماننا به قليل ، إنهم يؤمنون بالعمل الجيد المتقن ، ونحن لم نصل بعد إلى هذا الإيمان ، والعلم والعمل وصلاهم إلى القوة والصدارة والامتياز والحياة الأحسن ، ونحن نسير وراءهم ولا نسبة بين مانحن فيه وما هم فيه ، مع أن الإسلام يؤكد لنا أن العمل هو أساس الحياة الطيبة ، واقرأ قول الله سبحانه في سورة النحل : ﴿ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ مِنْ ذَكَرْ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل ١٦ / ٩٧] .

فهنا يفصل الله أمر العمل الصالح بأجل بيان ، فهو عمل كسب المعاش بدليل قوله تعالى هنا ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ وهذا طبعاً من كسب عمل اليد في الدنيا وهو غير عمل العبادة ، بدليل قوله تعالى ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فهذا جزء أعمال التعب ، وقد سبق أن ذكرت لك أن الله خفف عبادات الإسلام حتى أصبح الواحد منا يقوم بكل عباداته بفرائضها ونوافلها فلا ينفق في ذاك إلا أيسر الوقت ، ويتسع أمامه المجال بعد ذلك ليقوم بأعمال معاشه ويكسب رزقه على قدر ما يعمل فنحيا حياة طيبة رحية سعيدة ، ثم إن في القرآن من مفاتيح العلوم والأعمال ما يتعذر حصره إذا نحن قرأنا القرآن فعلاً قراءة تمنع وتفكير وتدبر ، وخذ مثالا لذلك قول الحق في سورة الحجر :

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سَكْرَاتُ أَبْصَارِنَا بِئِلَّا نَحْنُ قَوْمٌ مُسْحُورُونَ . وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ . وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ .

[الحجر ١٥ / ١٧ - ١٧] .

ثم سألنا أنفسنا : لماذا يقول الله هنا يعرجون بدلا من يدخلون ؟ فإذا مضينا

نستقصى حقيقة ذلك نلاحظ أن القرآن يستعمل لفظ « عرج بعرج » وما يتصرف منه في معظم مناسبات الصعود إلى السماء فنقرأ في سورة المعارج : ﴿ سَأَل سَائِلٌ مِّنَ الْمُكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ . مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ . تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۖ ﴾ .

[١٧٠ / ٤]

فالله سبحانه يصف نفسه هنا بأنه ذو المعارج . جمع معراج والملائكة تعرج إليه سبحانه . ويقول في سورة سبأ : [٣٤ / ٢]

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ [٣٤ / ٢] .

ويقول في سورة الحديد :

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [٥٧ / ٤] .

فإذا رجعنا إلى القواميس نجد أن لسان العرب مثلاً يقول في مادة « عرج » : وعرج في الدرجة والسلم يعرج عروجاً أى ارتقى ، وعرج في الشيء وعليه يعرج ويعرج عروجاً أيضاً . . وفي التنزيل : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ أى تصعد ، عرج يعرج عروجاً وفيه : من الله ذى المعارج ، المصاعد والدرج ، قال قتادة : ذى المعارج ذى الفواضل والنعم . وقيل : معارج الملائكة مصاعدها التى تصعد فيها وتعرج فيها ، وقال الفراء : ذى المعارج من تحت الله ، لأن الملائكة تعرج إلى الله فوصف نفسه بذلك . . والمعرج المصعد ، والمعرج الطريق الذى فيه الملائكة ، والمعراج شبه سلم أو درجة تعرج عليه الأرواح إذا قبضت . يقال : ليس شئ أحسن منه إذا رآه الروح لم يتمالك أن يخرج . . إلى آخره ، وهذا كله كلام طيب ، ولكنه لا يجيب عن سؤالنا : لماذا

يقال في الصعود إلى السماء إنه عروج ؟ ثم إن العروج ليس مقصوراً على الأرواح والملائكة ، فرسول الله ﷺ عرج به إلى السماء ، وصعوده إلى السماء هو المعراج المعروف .

فإذا نحن فكرنا في الأمر على ضوء ما وصل إليه أهل العلم في زماننا في صعودهم إلى السماء ، وجدنا أنهم يعرجون عندما يصعدون ، فإن المركبة الفضائية إذا انطلقت في خط مستقيم لم تلبث أن تنعرج وتدور في اتجاه دوران الأرض حول نفسها موسعة خط دورانها شيئاً فشيئاً حتى تخرج من الغلاف الهوائى ، ثم تمضى في الفضاء في طريقها إلى غايتها في خط منعرج أيضاً ، والمراد منحني ، وعندما وصلوا إلى القمر دارت المركبة حوله في اتجاه دورانه حول نفسه حتى إذا صارت على الارتفاع المحسوب عن سطحه هبط المحلقون إلى سطح القمر هبوطاً منعرجاً كما تفعل الطائرة في هبوطها على مدارج المطارات وصعودها منها ، واستمرت المركبة تدور حول القمر في انتظارهم لتعود بهم إلى الأرض ، لأن الخط المستقيم لا وجود له في الكون على المدى الطويل ، وهذه نظرية قررها أينشتاين من أوائل هذا القرن ، وإذن فكل شئ ينطلق من الأرض إلى السماء لا بد أن يسير في خط منحني حتى ينسجم مع حركة الكون ونظامه ، ولهذا فإن الملائكة تعرج إلى السماء ، وكذلك الأرواح ، والحق سبحانه ذو المعارج وهى الطرق منا إليه .

وهذا تفسير أرجو أن يكون مقبولاً ، وهو مأخوذ من عمل الآخرين ، وكان ينبغي علينا نحن - أهل القرآن والقبلة - أن نكون نحن مكتشفيه ، ولكن هذا لم يحدث ، لأننا لم نعمل مع أن ديننا دين عمل ، والقرآن لا يزال يحث على العمل ورسول الله ﷺ لم يكن يضع لحظة من وقته دون عمل ، كان يتعبد ويصلى ويقرأ القرآن ويسبح ربه على نحو لم يصل إليه متعبد بعده ، وكان يجد بعد ذلك من الوقت ما مكن له من القيام بأداء رسالته كاملة ، فأنشأ أمة المدينة بالجهد البالغ

والعمل المتصل مع التفكير الدائم ورسم الخطط المحكمة مع الهدوء التام وكمال الخلق وسعة الصدر والصبر على الناس ومتاعب العمل الدقيق المحكم .

وهذه كلها سنن كان علينا اتباعها والسير على منوالها إذا أردنا حقاً أن نصل بأمتنا إلى حيث كان ينبغي أن يصل بها الإسلام العظيم ، وهكذا فعل الصحابة رضوان الله عليهم ، فوصلوا بالأمة إلى حيث نعرف .

ونحن عندما نقول إننا نعجب بأبي بكر أو عمر أو علي رضوان الله عليهم ، فنحن في الحقيقة نعجب بالجوانب التي أخذوها عن الرسول ، وساروا عليها ، وأبو بكر في خطبته المشهورة التي بين فيها منهجه للأمة على مذهب الشورى قال : أما بعد فإنني وليت أمركم ولست بخيركم ، ولكنه نزل القرآن ، وسن النبي ﷺ وعلّمنا فعملنا . إنما أنا متبع ولست بمبتدع . وهو هنا يقول إنه متبع للقرآن وما سن النبي ، ومع ذلك فإن اتباعه كان ابتكاراً كله ، أقصد أنه كان ابتكاراً في حدود القرآن وما سن الرسول ، لأن السنة ليست قيوداً ، وإنما هي طريق رسول الله ، أو طريقته في مواجهة المشاكل على هدى ما جاء في القرآن الكريم ، وكانت المشاكل التي واجهها الرسول وحلها أحسن الحل كثيرة جداً ، وكذلك فعل أبو بكر وعمر ، فقد سارا في طريق العمل المتصل لما فيه خير الأمة ، وكان رسول الله ﷺ صاحب شورى ، ينزل به الأمر فيعرضه على أصحابه ، ويتصرف دائماً باتفاق معهم ، بهذا أمره سبحانه وعليه سار . وفي طريقه سار الشيخان ، وخلال عامين عالج أبو بكر أمر المرتدين ، ولم يكن معظمهم بمرتدين ، وإنما هو أبو بكر فسر التوقف عن إخراج الزكاة وإعطاء حق الله ورسوله انفصالاً عن الأمة ، ورأى أن إعطاء هذا الحق رمز للانتماء إلى الأمة ، فإذا ترك الناس أحراراً في أدائه أو عدم أدائه - وكان هذا رأى عمر - لم يلبث عقد الأمة أن ينفرط ، فإذا انفرط عقد الأمة تفكك أمر الإسلام وضعف ، ومن هنا رأى أبو بكر أن الممتنع عن أداء هذا الحق في مرتبة المرتد ، وعلى هذا التفسير استجاز حرب الممتنعين ،

وهذا كله ابتكار ، ولكنه ابتكار في نفس خط الرسول ﷺ ، وكذلك كان عمر يفسر ويبتكر على ضوء ما تعلم من القرآن ورسول الله . وكلاهما كان - على مثال رسول الله ﷺ - رجل عمل لا يتوقف عن الجهد لصالح الأمة لحظة من نهار أو ليل ، وهذا هو طريق الإسلام : طريق عمل واجتهاد متصل في الخط الذي رسمه القرآن وسار فيه رسول الله ﷺ .

وعندما تقرأ قول الله سبحانه في سورة النور :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۖ ﴾ [النور ٢٤ / ٥٥] .

نفهم المعنى الحقيقي لمصطلح الاستخلاف في الأرض ، فإن الله عندما يستخلف قوماً في الأرض ، لا يجعلهم بذلك مثليه ولا حالين محله . بل يمكن لهم في الأرض ويثبتهم في الدين الذي ارتضى لهم ويجهتدون في عمران الأرض ، وهذا بالضبط هو ما فعله رسول الله في إنشاء أمة الإسلام وتعمير وطنها بالعمل الدائب والتمكين لدينها في الأرض بالاجتهاد والاستعداد للتضحية في كل حين ، وكان رسول الله يعرف ذلك ولا ينساه لحظة ، ولهذا فقد كان دائب العمل ، وأمة المدينة التي ولدت بمجرد وصول رسول الله ﷺ إلى يشرب واجتماعه بالمهاجرين والأنصار بدأت ضعيفة جداً ، ولكن رسول الله ﷺ وآلئ العمل يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة حتى اشتد أزرها وقام أمرها ، وكان ذلك بالعبادات طبعاً . وهي أولى الصالحات ، ثم كان باستصلاح الأرض وزرعها حتى تحصل المدينة على قوتها ، ومنذ اللحظة الأولى رأى رسول الله ﷺ أن هذه الأمة لا بد أن تأكل أكلاً كافياً ليشتد عود أفرادها ، وهي لا تستطيع أن تعتمد في ذلك على غيرها ، فهي لن تلبث أن تدخل في معركة الحياة والموت مع كل معاند ومكابر . ولم يكن أهل

المدينة كلهم قد دخلوا في الإسلام بعد ، فكان هناك يهود ومترددون ومنافقون وناس كثيرون ينبغي أن يعطوا الوقت الكافي ليطلعوا على فضائل الإسلام وما يعود عليهم من الخير إذا هم دخلوا فيه ، ولكن العمل الأول الذي كان لابد من البدء فيه هو إيقاف تجارة مكة ، فإن مكة قوية بتجارتها ، وكبار أهلها قام جاهد على المال ، فهم لن يؤمنوا بالإسلام طواعية أبداً ، فلابد من الضغط على عنق الحياة المكية وهو طريق التجارة ، ولهذا بدأ الرسول بإرسال بعث إلى منازل قبيلة جهينة لإشعارهم بقيام أمة المدينة وضرورة الدخول في الإسلام أو في حلف المدينة على الأقل ، لأن التجارة المكية لابد أن تقف ، وطريق التجارة يمر في أرض جهينة من ذى خشب إلى ينبع ، وكان قائد البعث عبد الله بن جحش وكان من أجلاء المهاجرين ، ورئيس جهينة معبد بن عمرو الجهني يرى نفسه أمام قوة من المسلمين على أهبة القتال . وعبد الله بن جحش يطلب إليه أن يدخل في حلف أمة المدينة ، ويتوقف عن حماية متاجر مكة ، وكان معبد رجلاً ذكياً فأدرك في الحال أن عليه أن يطيع . فطلب إلى رسول الله أن يوثق موثقاً مع جهينة لتأمينه ويأمنها ، ورسول الله يستجيب ، وفي أثناء ذلك تحركت جماعة من كنانة كانت تنزل بأطراف أرض جهينة ، فأرسل إليها عبد الله بن جحش نذيره فرفضوا الاستجابة وطاردوا وفد المسلمين إلى أرض جهينة .

ويختلف أمر المسلمين على رئيسهم ، ويبلغ الأمر رسول الله ، فلا يرضيه هذا من المسلمين ، إذ لا يجوز أن يخرجوا من عنده متحدين ثم يقع الخلاف بينهم وبين عبد الله بن جحش أميرهم ، فهو واجب الطاعة ، ويعود البعث إلى المدينة وبعد قليل يفد معبد بن عمرو الجهني إلى المدينة ، ويلقى الرسول فيكرمه ويكسوه ولكن معبد الجهني لم يفهم الأمر على حقيقته فهو لا يزال على مودته مع القرشيين ، فيرسل الرسول ﷺ عمه حمزة في بعثة إلى سيف البحر وهذه أول سرية يذكرها أصحاب السيرة ، أما سرية عبد الله بن جحش فقد تبين لنا أمرها من

المطالعة الدقيقة للدلائل النبوة للبيهقي ، وكتاب شفاء الغرام في أخبار البلد الحرام للفقاسي ، ويعود حمزة إلى المدينة وبعد قليل يرى رسول الله ﷺ أنه لا بد له من أن يحسم أمر جهينة بنفسه ، فيخرج في غزاته الأولى ووجهتها يواط في اقليم الفرع ويلقى معبد بن عمرو الجهني ويقول له : أحب أن ننبذ إليك ؟ . ويدرك الرجل أن الأمر أخطر مما كان يظن ، فيقول لسنا بحاجة إلى حريك ، وهنا فقط يطمئن رسول الله ﷺ إلى أن الرجل فهم ، وأنه منذ الآن لا بد أن يقف إلى جانب المدينة ، ويدخل الجهنيون الإسلام أفواجا .

وهذا كله وما تبعه من غزوات وسرايا قبل بدر تم خلال أقل من عام من هجرة الرسول ﷺ إلى مكة ، وهو يدل على مقدار الجهد الذي كان رسول الله ﷺ يبذله للقيام بحق رسالته ، فإن الغايات لا تدرك إلا بالأعمال ، ورسول الله ﷺ رجل نشيط لا يطمئن له جنب مادام أمامه عمل لا بد أن يقوم به .

ففى أثناء هذه السرايا والمغازي التي كان يمهدها للقاء الحاسم مع مكة كان يعمل دائماً في إنشاء أمة المدينة وثبتت دعائمها بالعمل المتصل ، فهو يؤاخي بين المهاجرين والأنصار ، وهو يجتمع مع أصحابه ويشاورهم في تنظيم أمر الأمة على أساس قانوني واضح ، فإنه استقر في المدينة على أساس اتفاق بسيط عقد يوم العقبة الثانية ، وهذا الاتفاق هو بيعة العقبة الثانية ، وهي مجرد تعهد من جانب أهل المدينة باستضافة الرسول وحماته من العدوان ، ولكن محمداً صلوات الله عليه غيّر الموقف تغييراً حاسماً خلال الشهور الأولى لهجرته إلى المدينة ، فهو لم يكن قط مهاجراً إلى المدينة ، بحثاً عن مكان يأمن فيه على نفسه وجماعته ، ويهارسون فيه عباداتهم دون تعرض من جانب المكين ، لقد هاجر لغاية أخرى أعظم من ذلك بكثير ، إنه يريد أن ينشئ أمة الإسلام ويشد عضدها ويقوى بنائها لتقوم بالعمل العظيم ، ومن ثم فهو يريد أن يستبدل بيعة

العقبة الثانية اتفاقاً أكبر وأشمل لتقوم عليه الأمة الإسلامية ، وهذا الاتفاق لا يمكن فرضه ، بل لابد أن يكون بتفاهم ورضا من الأمة ، ومن هنا تبدأ المفاوضات التى تنتهى بالصحيفة التى أُملى رسول الله جزءها الأول على بن أبى طالب كاتب الوحي إذ ذاك ، وبعد قليل ومع نمو الأمة يكتب الجزء الثانى بعد بدر ، والثالث بعد أحد ، ثم تستكمل المواد بحسب الظروف بعد ذلك .

وفى أثناء ذلك يجرى العمل على قدم وساق داخل المدينة ، فيقوم مسجد رسول الله ﷺ وتنشأ المنشآت ، وكل هذه الأعمال الصالحات التى تذكرها الآيات الكريمة ، وبها تستحق أمة الإسلام الاستخلاف ، لأن الاستخلاف فى الأرض معناه تأييد الله سبحانه للأمة الصالحة التى تقوم بأمانة الإيمان السليم ، وتقوم بأمانة تعمير الأرض ، فإله سبحانه خلق الأرض لعباده الصالحين لتعميرها ، وهو سبحانه قد منح الإنسان العقل ليستخدمه فى الطاعة لرسوله واتباع طريقه والدخول فى دينه عن قلب واع مدرك ، ثم تقوية هذه الأمة بالعمل الصالح لتعمير الأرض حتى تكون بلاد أمة الإسلام أجمل وأرقى أمم الأرض ، فيكون هذا الجمال وذلك العمران أنصع دليل على فضائل الإسلام .

وكانت هذه المعانى كلها فى ذهنى ، ولكنى قرأت خلال العام المتقضى قراءات طويلة عن الاستعمار وماذا فعله المستعمرون ببلاد الإسلام ، والكثير من الكتب التى قرأتها كتب مصورة ، وتصاويرها رسمها رسامون زاروا بلادنا أثناء عصر التوغل الاستعمارى ، بعضهم كانوا مصاحبين للجيش الأوربية المعتدية ، وهؤلاء المصورون رسموا ما رأوا من مناظرنا ومناظر بلادنا ، وأصارحك القول بأننى شعرت بالخبجل وأنا أنظر إليها ، فإن مناظرنا قبل عصر الاستعمار كانت مزرية جداً ، وفقر بلادنا كان شديداً ، ومدينة الاسكندرية التى كان ينبغى أن

تكون أعمر وأجمل وأغنى من لندن ، كانت قد تدهورت حتى أصبحت قرية لا يسكنها إلا خمسة آلاف إنسان ، وكل ذلك نتيجة للكسل والقعود عن العمل وظلم الحكام ، وكل هذه أمور ليست من الإسلام في شيء ، فإن العبادات في رأس الصالحات ولكنها ليست كل الصالحات ، فالدراسة والتعليم والبحث والابتكار والعمل لما فيه خير الإنسان وجماعته صالحات ، ولقد فهمت وأنا أتأمل هذه الصور لماذا جبرءوا علينا واقتحموا بلادنا وهزمونا بأيسر منونة ، والممالك الذين صور لهم غزوهم وجهلهم أن لا قوة في الأرض تقف أمامهم تبددوا في معركة لم تستغرق أكثر من ساعة ، والأهرام تنظر إليهم وتتحسر على أحوالهم ، وعندما دخل الفرنسيون القاهرة ونزل رئيسهم نابليون بونابرت في دار واحد من كبار الممالك دهش من الفقر الذي رآه ، فهو يأتي من بلاد فيها قصور ملكية تروع النفس بهجة وجمالاً وغنى ، فإذا بقصر هذا الرئيس المملوك الكبير أقل بكثير من دار ضابط فرنسي صغير في باريس .

وذلك كله أتى من الكسل والقعود عن العمل ، وحسباننا أن الأعمال الصالحات هي العبادات وحسب ، وفاتنا أن نعرف أن الصالحات يدخل فيها عمران الأرض ، وما كان ربك سبحانه ليستخلفنا في الأرض وقد تكاسلنا ونمنا ورضينا بالفقر والذل ، ومن يطلب الاستخلاف في الأرض فليكن على مستواه ، والحياة في الأرض جهد وعمل واجتهاد ، والقيام بالعبادات أداء لحق الله على الإنسان ، ولكن الله سبحانه يريد لأمته أن تكون أمة علم وعمل واجتهاد وبناء وعمارة وزراعة وصناعة وقوة في العقل والجسد ، وكل ما نعمله في سبيل ذلك يدخل في صوالح الأعمال ، وكل أزماتنا ومتاعبنا علاجها العمل ، العمل الطيب المتقن القائم على علم ودرس وتجربة ، والله سبحانه يحب العمل الجيد ، وهو سبحانه أحسن كل شيء خلقه ، وصدق الحق سبحانه في قوله : ﴿ ذَلِكَ أَنْ لَمْ

يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكُ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ . وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا
رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ . وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ
وَيَسْتَخْلَفْ مَنْ بَعْدَكُمْ مَا يَشَاءُ . كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ . إِنْ مَا
تُوعَدُونَ لَأْتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ . قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي
عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾ .

[الأنعام ١٣١ / ٦ - ١٣٥] .

